غيِّروا بالدعوة لا بالانتحار

حين ذكر القرآن الكريم لنا قصة اختبار خليلي الرحمن سيدنا إبراهيم وولده سيدنا إسماعيل، خلص بعد ذلك إلى نتيجةٍ مفادُها أن التقرب إلى الله تبارك وتعالى يكون بإحياء الإنسان لا بإماتته.

قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٧].

فكان الأمر الإلهي مظهرًا الاستعداد الخليليَّ والاستعداد الصدِّيقيّ، الذي لا يتردَّد عند سماع الأمر، حتى لو كان يقضي بتقديم ولده فداءً.

إنه درسٌ في الطاعة، لم يكن المراد منه أن يُذبح خليلُ ربِّنا إسماعيلُ ولدُ خليلِه إبراهيم.

وهكذا كان الذِّبح العظيم، والأضحيةُ التي أُطعم الإنسانُ من خلالها وبها، طريقَ قرب، فكان الدرس في النتيجة أن التقرب إلى الله يكون بإطعام الإنسان وإحيائه لا بقتله وإماتته.

فالحياة الإنسانية محترمة في الإسلام، وما شُرع القتل والاقتتال إلا لإيقاف القاتل عند حدِّه، ولمنعه من المداومة على القتل، فالله تبارك وتعالى قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، لأن إيقاف القاتل عن متابعة قتله حمايةٌ للحياة، فإذا لم يُضرب على يد القاتل سوف يستمر في قتله، ولن يكون للحياة حماية.

وقال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ أي قاتلوا من جعل القتل دَيدَنَه، وأراد أن ينشر الفتنة بالقتل، ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي حتى لا يجعل واحدٌ من الناس نفسَه مالكًا للدين، فيُلزم الناس بقوله، ولا يتَّسع لقول الآخرين، فالدين لله لا لرأي الرجال ولا لتسلُّطات العقول...

وهكذا نجد أن الله سبحانه وتعالى حينما أمر بالقتل والقتال كان بذلك يحمي الحياة، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩] لأن الدفاعَ عن النفس وحمايةَ الحياة واجبٌ إسلاميّ.

وقال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ) حماية للمال، (وَمَنْ قُتِلَ دُونَ نَفْسِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ) حماية للحياة، (وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَخِيْهِ فَهُوَ شَهِيدٌ) حماية للحياة أيضًا، (وَمَنْ قُتِلَ دُونَ جَارِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ) حماية للحياة أيضًا.

وقال تبارك وتعالى وهو يظهر قيمة الحياة في الإسلام: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣١].

وهذه المقدمة فيها بعض النماذج والدلائل التي تظهر قيمة الحياة واعتبارها في الإسلام.

واليومَ يضيع الشباب في العالم المادِّيّ وفي العالم الإسلاميّ، والشبابُ قاعدةُ المجتمع المتينة التي يقوم عليها بنيان حضارتها.

لقد بدأ الشباب في الغرب أو الشرق المادِّيَّين يَضيعون بسبب المتاهات والمخدرات وإشباع الملذات، وارتفعت نسبة ضياعهم، ووصل كثيرٌ منهم إلى المقابر بسبب الانتحار، والذين وصلوا إلى الانتحار فقدوا في بواطنهم مبررات وجودهم وحياتهم.

وهذا الفقدان لمبررات الحياة بدأ يدخل إلى عالمنا الإسلاميِّ، لكنه مغطًّى.

والخبير يدرك هذه العلة، لكنها مستترة، ويروَّج سُوقُها من خلال غطاءٍ يوهم الشباب أن هذا الطريق يسوقهم إلى الجنة، وأنه يمثل واجبًا إسلاميًّا، وما أبعده عن حقائق الإسلام!

نحن أمة حين تكون ملتصقة بالقرآن لا تفقد مبررات الحياة، لأنها تفهم أن خلق الإنسان لم يكن عبثًا، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وحينما تنتفي العبثية في وجود الإنسان، ويفهم أنَّ وجودَه ابتداءً كان بفعل خالقه، وأن هذا الوجود ليس لأحدٍ أن يتحكم فيه أبدًا فهو بيد خالقه، وأن إنهاء وجوده بيد خالقه، وحياتَه ما بين المبتدى والمنتهى تنتفي منها العبثية... فلا يمكن للشاب المسلم الذي يرتبط بهذه المعاني أن يفقد مبررات حياته، لأنه يدرك أبعاد الحكمة في هذه الحياة، سواءٌ كانت هذه الحياة في سرَّاء أو ضرَّاء، في نصرٍ أو هزيمة، في نعمةٍ أو نقمة، في شدة أو رخاء... إنه يربط هذه الحياة بخالقها، ويمنع في كل الظروف أن تمتد يدٌ لتتلاعب بحكمة الحياة هذه لتنقلها إلى حالةٍ من العبثية.

أقول هذا لأنني وجدت – وأنا أخاطب مساحة واسعة في عالمنا الإسلاميّ عبر الشبكة الحاسوبية العالمية، وهي الوسيلة الوحيدة الباقية دون أن يكون لأحدٍ هيمنةٌ عليها – أنَّ من الواجب تبيين هذه الحقائق الإسلامية، في زمنٍ أصبح التوسع فيه بقتل الإنسان باسم الجهاد الإسلاميّ.

إنها ظاهرة جديدة بدأت تنتشر في عالمنا وتزداد يومًا بعد يوم.

وحتى وإن كانت هذه الظاهرة في إقليمنا تشبه المفقود، لكننا نخاطب مساحة عالمنا، فقد **كانت في الماضي تتوجه إلى المحتل بعينه**، وتعرفون أن وجود جيشٍ كامل في صورة دولةٍ أمرٌ نادر الوجود، إلا في الكيان الصهيونيّ، فكلُّ فرد في ذلك التجمُّع يعتبر حربيًّا.

وفي ذلك الوقت اختلف العلماء فيما يسمى بالعمليات الاستشهادية، وأصبحت قضيَّةً خلافيَّة، فهناك من أجازها بسبب انعدامِ السلاح، وانعدامِ الوسائل كلِّها، ووجودِ محتلٍّ على أرضٍ مغتصبة، فهو واقعٌ خاصٌّ جدًّا لا مثيل له في العالم، ومع هذا اختلف العلماء فيه، فمنهم من قال: يقاتل هذا العدو بالسلاح، ومنهم من قال: إن هذا الظرف يجيز تلك العمليات التي سميت استشهادية.

لكننا بدأنا نرى انتشار هذه الظاهرة من غير تعقُّل، وبعيدًا عن حقائق الإسلام، فقد كثرت ظاهرةُ تفجير الإنسان نفسَه داخلَ السوق، وظاهرةُ تفخيخ المركبات...

وبدأت في الدول التي تعاني من وجود المحتلّ، ثم انتقلت إلى مرحلة ثالثة في **بلادٍ لا توجد فيها حربٌ مع محتلّ**، وحصل ما أخبرنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قال: **(لا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ، وَلا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ)**.

ويزداد الجهل بالإسلام يومًا بعد يوم، ويستمد كثيرٌ من الشباب سلوكَهم من العاطفة لا من العلم.

ووصل الأمر إلى درجةٍ تجرّؤوا فيها على أسماءِ غزوات النبي صلى الله عليه وسلم، وبدؤوا يسمون تلك الحوادث بأسماء تلك الغزوات.

كنت أقف أمام فقه الإمام مالك رضي الله عنه الذي كان لا يُجيز قتلَ الكافر الذي يتَحصَّن بالمسلم أصلاً، وكنت أعجب من رؤيته تلك، واستدلَّ بفعلِ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم كانوا يمتنعون عن ردِّ أعدائهم بالنبال – وهم يحاصرون قلاعهم – حين ينزلون إلى الماء مُتحصِّنين بأسرى المسلمين، فيمتنع الأصحاب عن رمي النبال خشية قتل أسيرٍ مسلم، مع أنهم في حالة حرب.

وقال غيره: يمكن قتله عند الضرورة، إذا شكّل ذلك الكافر خطرًا.

انظروا إلى هذا التباين وما وصلنا إليه اليوم.

والساكتُ عن الحقِّ شيطانٌ أخرس.

ونحن عندما نُقرِّر حقائقَ إسلاميَّةً لا نُقرِّرها لإرضاء زيدٍ أو عَمرو، إنما لأننا نريد أن نكشف النقاب عن حقائق الإسلام في زمنٍ كَثُر الجهل فيه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩-٣٠].

وجاء في الحديث المتفق عليه الذي أخرجه الشيخان (البخاري ومسلم) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا).

وأخرج البخاري عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ فَجَزِعَ، أي لم يصبر، **فَأَخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ**، أي يريد أن يَمُدَّ يده إلى شيءٍ لا يَحِقُّ لغيري أن يتصرف فيه، **حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ).**

وجاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وابن حبّان وغيرهم:

(الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ، و لم يقُل: المسلمون، **عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ).**

فرسالة الإسلام أمنٌ للعالم، المسلمِ وغيرِ المسلم، وغيرُ المسلم حسابُه على الله.

والإسلام يحمل رسالة تأمين، ويحمل لافتة الأمن، لا شعارات التخويف.

وثَمَّةَ اليومَ في الغرب – كما علمتُ من مصادرَ عِلْميَّةٍ دارسة – من يُمارس لعبةً قذرة تتلاعب بحقائق الإسلام، فيُخرج النصوص الإسلامية مُقتطَعة، حيث يجمع النصوص من القرآن فقط دون أن يُعلِّق، ويُخرجُ كتابًا يقول فيه: هكذا يقول القرآن.

إنهم يبحثون عن النصوص ويقتطعونها ويقومون بطباعتها دون تعليق، بعيدًا عن مقاصد القرآن والإسلام، كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] نصٌّ مُقتطَع.

ولا يكتفي أولئك بما يفعلونه من خلال طائراتهم التي تقصف أطنان المتفجرات، وهيمنتهم على عالمنا الإسلاميّ، ونهبهم لثرواته، وتلاعبهم بمصيره... لكنهم يُشوّهون حقائقه الناصعة، فيقلبون المُحِقَّ مُبطِلاً، والمُبطِلَ مُحِقًّا، والمُفسِدَ مُصلِحًا، والمُصلِحَ مُفسِدًا...

ورسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **(وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ)**.

أخرج الحاكم في المستدرَك عن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه – وكُنت أجد نفسي مضطرًا لكثرة إيراد الدليل والنصوص، لأن هذا الموضوع ينبغي أن يُدعَّم بالأدلة لا بالآراء – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(أخاف عليكم الهرج، قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: القتل..... قالوا: وفينا كتاب الله؟ قال: وفيكم كتاب الله عز وجل، قالوا: ومعنا عقولنا؟ قال: إنه ينتزع عقول عامة ذلك الزمان، ويَخْلُفُ هباءٌ من الناس، يحسبون أنهم على شيء، وليسوا على شيء).

وقال عليه الصلاة والسلام كما في صحيح البخاري:

(لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا)، فذنبك مغفورٌ ومعك فُسحةٌ طالما أن الناس يأمنون تجاهك.

إذا لم تمتدَّ يدُك إلى أموالهم ولا إلى دمائهم، ولم تسرق أموال الناس، ولم تقتل، فأنت في فُسحة من دينك.

وإذا كان التغيير في مجتمعاتنا الإسلامية واجبًا – وهذا لا يشكُّ فيه أحد، فالمجتمعات الإسلامية تعاني من أزمةٍ حضارية، وعِلْمية، وخُلُقية... فواجب التغيير كبير – فهل يُحقَّق واجبُ التغيير بهذا الأسلوب؟

هل نُغيّر بالانتحار، أم ينبغي أن نصحو من رقادنا، وأن نبدأ منهج دعوةٍ فاعلٍ مُنتِج؟

واجب الدعوة يسوق إلى التغيير.

واقع مجتمعاتنا الإسلامية سيِّءٌ جدًّا، لكننا نستطيع تغييره بالدعوة، بعيدًا عمَّا يُمارَس من ألاعيبَ قذرةٍ في شوارعنا وطرقاتنا ودولنا وأقاليمنا...

ينبغي ألا نلتفت.

وكما قلت في الأسبوع الماضي: ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ﴾.

الواجب هو واجب الدعوة، وبمقدار ما نبقى مع فردياتنا ومصالحنا الخاصة سيكون في الأرض منهج الانتحار، لكن حينما نبدأ منهج الدعوة عازمين على التغيير بصدق فإننا سنحققه، فقد غيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان في مُبتدأ الأمر وحدَه.

فلا بدَّ من الدعوة، ولا بدَّ من الصدق فيها.

وعلينا أن نسمع القرآن وهو يخاطب الدُعاة – وسيدُ الدعاة سيدُنا محمد صلى الله عليه وسلم – فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

المسارعة إلى الدفاع عن الأرض ومقاومةِ الغزاة في الأرض الإسلامية المحتلة واجبٌ، فلا يفهمنَّ أحدٌ أننا نثبِّط المقاومين.

فرِّقوا بين الأمرين، فمقاومة المُحتَلّ والغزاة ينبغي أن تكون المسارعة إليها واجبًا حاضرًا، لكنني أتحدّث هنا عن أمر آخر، وهو انتشارُ ظاهرة التوسّع في القتل باسم الجهاد الإسلاميِّ في غير محلها، وانتشارُ ظاهرة قتل النفس.

وأخيرًا: أختصر المطلوب في نُقاطٍ ثلاثة:

١– ينبغي أن نتبنّى منهج الدعوة كوسيلة للتغيير لا ثاني لها، فيجب أن نُغيّر لكن بالدعوة.

٢– ينبغي أن نقوم بالتربية على الإيجابية المنتجة للخير كبديل عن السلبية التي لا تبصر إلا الشر.

٣– علينا أن ننشر الحقائق العلمية الإسلامية، لأن الجهل ينتج التخريب، أما العلم فإنه يبني ولا يخرب.

رُدَّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.

د. محمود أبو الهدى الحسيني